الهوية
بين الحكاية والرواية

— د. يمنى العيد —

أنقل سؤالَ «الانتماءِ القومي والانتسابِ القطري» المطروحَ على الكاتب والكتابة إلى جنس كتابةٍ أدبيةٍ محدَّدٍ هو الرواية. والدافع هو نقل هذا السؤال من حيّزه العام والمجرد إلى حيّز الممارسة النوعيّة. وأمّا الهدف فهو إعادةُ النظرِ في السؤال نفسه، وإبداءُ وجهةِ نظرٍ في مدى صلاحيّتِهِ عند طرحِهِ على الكتابة الأدبية الفنية.

أودّ أنْ أفترضَ أنّ هذا السؤالَ قد يكون قابلاً لجواب عند الكلام على خطاب عقائديّ ـ سياسيّ مثلاً، في حين قد يقودُنا هذا السؤال نفسه إلى ليّ عنق الخطاب الروائي (مثلاً) عندما نبحث له عن جوابٍ في الكتابة الأدبية الفنية.

وأودّ أن أفترضَ أيضاً أن المقولات العامة قد تتكشَّف عن قصورها أحياناً عند النظر فيها في حدود مجالاتٍ معينة، لذا يبدو لي من المفيد، وربما من الضروري، أن لا نكتفي بمناقشة المقولات على مستواها العام، بل أن نعاينها فيما تحيل عليه، أو فيما تدَّعي أنه مرتكزُها أو أنها نتيجة له. وأعتقد أنّ الرواية هي أحدُ المرتكزات الأدبية الهامة في الكتابة العربية.

ما سأقدمُه هو معاينةٌ موجزةٌ أتوخّى بها جدلاً أرى أنه ضروري حين ننشد المعرفة.

* * *

من الواضح لقارئ العنوان العام: «الكاتب والكتابة: بين الانتماء القومي والانتساب القطري (تكامل أم تعارض)»، أن الانتماءَ القوميَّ يشير إلى الهوية العربية، وأن الانتساب القطريَّ يشير إلى البلد الواحد، لبنان مثلاً. لذا فإن نقلَ هذا العنوان إلى مجال الكتابة الروائية يطرح سؤالاً عن عروبة الرواية اللبنانية مثلاً ولبنانيتها فكأننا نسأل: هل الرواية اللبنانية هي روايةٌ عربية؟ أو: هل ثمّة تعارضٌ بين أن تكون الروايةُ لبنانيةً وبين أن تكون عربيةً، أم أن في ذلك تكاملاً؟

لِنُنَبِّهْ إلى أن السؤال في الحالين، وربما في مطلق صِيَغِهِ، سيبقى سؤالاً يشير إلى هويتين، أو طابعين: قومي وقطري، وأن مغزاه هو حول التعارض والتكامل. كأن ثمة إقراراً بالهويتين، أو بالطابعين، إقراراً يوحي بمرجعيةٍ محددةٍ بالجغرافيا والسياسة، ويحيل على واقع البلدان العربية باعتبار تقسيماتها وحدودِها واستقلالِها الواحد منها عن الآخر بأنظمةٍ وحكومات.

أترك هذه المرجعية، (مؤقتاً)، لأعودَ إلى الرواية، وأقدِّمَ الملاحظتين التاليتين:

أوّلاً: الروايةُ مادةٌ لغوية، واللغة ـ كما نعلم ـ مخزونٌ ثقافيٌّ يتكلّسُ أو يموت إذا عُزل عن اللسان من جهة، وعن الثقافات الأخرى من جهة ثانية. وأعني باللسان: المنطوقَ المحليَّ الحيَّ، الحاملَ لعناصرَ من التجربةِ المعاشة ولحشدٍ من الدلالات المحسوسة والمرئية غير المستقرة، بعدُ، في لغة والقابلة، باستمرار، لرفعها إلى صياغةٍ تغتَني بها اللغةُ السائدة لتتجددَ وتستمرَّ في الحياة. وأعني بالثقافات الأخرى: المكتوبَ الذي يشمل التراثَ الكونيَّ بما فيه تراثُ لغتنا نفسها.

الرواية العربية، باعتبارها مادةً لغوية، تحمل هويةَ هذه اللغة العربية، ولا يعني اغتناءُ هذه اللغة بالمنطوق المحليّ الحامل لعناصرَ من التجربة المعاشة (في حدودها القطرية)، أو بالكوني الحامل لعناصرَ من التجربة الإنسانية الواسعة، أن الروايةَ تفقد انتماءَها إلى هوية اللغة التي تكتب بها. إنه لتناقضٌ بائس أن تكون الرواية المكتوبةُ باللغة العربية غيرَ عربية بسبب تطور هذه اللغة وتجددها بدخول عناصر ثقافية متنوعة إليها، واكتسابِها مفرداتٍ وتعابيرَ وصيغاً جديدةً وحيّة، ولو عن طريق الاقتباس أو التحويل والمزج وإدراج الوحشي المولود فيها على لسان العامة من الناس.

إنّه لمستغرب حقاً أن تفقد اللغةُ، أيةُ لغة، هويتَها التاريخية بسبب تعدد روافدها الثقافية والتعبيرية المتنوعة؛ وإنه لمستغرب أيضاً أن يُطرح سؤالُ الهوية على الرواية العربية التي تُكتب باللغة نفسها التي تنتسب إليها.

وإذ أستغرب كُلَّ هذا، فإنّي أرى أن طرح سؤالِ الهوية يشير، بالنسبة إلى اللغة، إلى رافدها المتعلق بالمنطوق الحي المحلي (القطري) وتعدُّدِه لا باعتبار تعدُّدِ فئاتِ المجتمع الواحد وتنوعها كما

هو الأمر عادة، بل باعتبار وضع سياسي تعددتْ بموجبه البلدانُ العربية وصارت أقطاراً. وعليه فإن سؤال الهوية لا يشير هنا إلى تعدد المستويات الدلالية ضمن اللغة الواحدة، بقدر ما يشير إلى مضمون أيديولوجي يعيد سؤالَ الهوية إلى خطابه السياسي.

لذا، أرى أن طرحَ سؤال الهوية يشير، بالنسبة إلى الرواية، إلى الحكاية فيها، أي إلى ما هو مضمونٌ وموقفٌ أيديولوجي، ولا يشير إليها كعمل فني. وهو أمر يدعوني إلى الانتقال إلى الملاحظة الثانية.

إجرائياً، يمكن النظرُ إلى الرواية على مستويين:

- مستوى الحكاية.
- مستوى الخطاب (القول).

يشمل المستوى الأول، كما نعلم، الأحداثَ، والشخصياتِ الفاعلة، والمكان. وتحيل الحكاية بعناصرها هذه على مرجعيٍّ يرتبط أحياناً بالمعاش والراهني، وبالمستجد في تاريخ الجماعة وحياتها، ويرتبط أحياناً أخرى بالموروث. وفي كلا الحالين يمكن القولَ إنّ الحكاية تنتمي إلى المحلي (القطري). وقد يكون النظرُ إلى الرواية باعتبار حكايتها - في مثل هذه الحال - مصدرَ السؤال الذي يضعها بين القومي والقطري، ولاسيّما أن حكايةَ البلاد العربية صارت حكايات: فالتقسيم الذي تبع اتفاقيةَ سايكس بيكو؛ والحدودُ التي أقيمت حواجز بين البلدان العربية وتكرست مع الزمن واتسمت أحياناً، أو غالباً بالصراحة وأدتْ إلى عزل هذه البلدان الواحد منها عن الآخر وإلى تقطيع أواصرِ النسيج الثقافي المشترك؛ والأثنياتُ التي استُنْفِرَتْ؛ والهوياتُ التي نودي بها على أساس هذه الاثنيات، أوعلى أساس الطائفة والدين؛ والقيودُ التي فُرضت على دخول المطبوعات من بلد عربي إلى آخر؛ وقيودُ النقد وشروطُ الدفع المرتبطة بعواملَ اقتصاديةٍ تتفاقم وتزيد تلك القيودَ ترسيخاً، وتُعمّقُ عوائقَ التواصل الثقافي على مستوى الخطاب بما في ذلك الخطاب الأدبي، والأدبيُّ الروائي، بصفته خطاباً دلالياً، أو لغةً يحييها اللسان؛ والاستخفافُ بكل ما هو مشترك في القضية والحياة والمصير، أو تعمُّدُ إهماله لحساب الحاكم وسلطته؛ وعدمُ التعاون والتنسيق المجدي في السياسة والاقتصاد، وفي كلّ ما يشكل نسيجَ الحياة ويقاربُ بين التشكيلات الاجتماعية، لا بهدف تذويب بعضها في البعض الآخر - وهو ما تخشاه فئات وترفضه - بل بهدف تمتين هذه التشكيلات في البنية العامة، وتصليبِ قدراتها على مواجهةِ مشاكلها التي غالباً ما ترمي بأسبابها، بكل أسبابها أحياناً، على الآخر...

كلُّ هذه الأمور، وربما بعضُها، وربما غيرُها، هي من الأمور التي جعلت الحكايةَ العربيةَ حكايات، كلُ بلد عربي صارت له حكايةٌ مدفوعةٌ سياسياً إلى مزيدٍ من العزلة والتجذر بنيوياً في اختلافها عن الأخريات، بحيث لم يعد تعددُّ الحكايات - كما كان من الممكن أن يكون - من قبيل التنويعِ على المرجعي المشترك، باعتبار عناصره الأساسية المكونة له، وباعتبار تعدُّد مواقع النظر إليه. بل صار تعدُّداً لما يتفتّتُ ويتجزّأ حتى ذاته نفسها، أولما تتكسّرُ عناصرُه الأساسية وتتشوه حركةُ العلاقات بينها.

لقد صارتْ للبنان مثلاً حكايةٌ عن حربه التي دامت مايقارب العقدين، كما صارتْ لمصر حكايةٌ عن ثورتها الاشتراكية وعن هزيمتها (عام ١٩٦٧) وعن صلحها مع إسرائيل.. وصارتْ لفلسطين أيضاً حكايتُها عن المقاومة الداخلية بالحجارة.. وصارتْ للخليج العربي أيضاً حكايته..

حكايات.. وبقدر ما صار صعباً على الرواية العربية التقاطُ ناظِمها المشترك وتمثُّله في ايقاع بنائي فني، فقد مال السؤالُ عن هوية الرواية العربية إلى أن يكون سؤالاً عن المضمون والموقف الأيديولوجي.

* * *

لكن الرواية ليست مجرَّد حكاية، ولا هي معادلٌ نقليٌّ لها، وإلاّ لكانت تراجعتْ إلى حدود الخطاب الذي يحكي واقعةً، أو ينقلُ خبراً عنها؛ وإذْ ذاك فإنّ السرد قد ينجح في تقديم موقف من الذي يحكي، ولكنه سيفشل في أن يكون رواية.

الرواية صياغةٌ بنائية مميزةٌ بها تولد الحكايةُ مختلفةً ومفارِقةً لمرجعها؛ حتى لكأن لاوجود لهذه الحكاية خارج روايتها. ومعنى هذا أن ما يحددُ هويةَ الرواية هو روائيتُها، أي تميزُها كشكل روائي فني. ولئن كان هذا التميُّز لا يتحدَّد بالنَّظر إلى مجموع التقنيَّات التي يتوسّلها الخطاب الروائيّ، فإنّه لا يتحدَّد كذلك بالنظر إلى الحكاية وحدها.

لنقلْ باختصار إن التميز يتحدَّدُ بالنظر إلى اللغة الروائية من حيث قدرتُها على رفع ما تحكيه إلى لغة توحي بأكثر من الحكاية، وبأبعد من مكانها ومرجعها، أو بأبعد من الحادثة وشخوصها الفاعلين؛ حتى لكأنَّ الـ «هنا» في الرواية هي أيضاً الـ «هناك» فيها، و«الأنا» هي أيضاً إلـ «نحن». إذ ذاك يمكن للقارئ أن يكتشف المشتركَ بين الفواصلِ ويتبيّنَ الأساسيَّ في العارض، والحقيقيَّ في المتخيّل، فتثيره الحكاية ويمتعه الخطاب.

إن تميز اللغة روائياً يتمثل بأثرٍ له في الحكاية نفسها؛ كأنْ يتّسع

فضاءُ الرواية لأكثر من صوتٍ من أصوات شخوصها، وتتفاوتَ مستوياتُ الكلام تفاوتَ الفئات الاجتماعية التي تنتمي إليها هذه الشخوص، فيشفّ بذلك موقعُ الراوي عن موقف يفسح مجالاً لتعددٍ زوايا النظر من الحكاية، فتغتني الحكاية وتتلون شخوصُها بألوان الحياة، فتستقلّ هذه الشخصيات بسلوكها وتنسج الحقيقي.

بهذا المعنى لا يعود سؤالُ الرواية سؤالاً عن قوميتها وقطريتها، بل يصيرُ سؤالاً عن روائيتها. أي أن ينتقل من الأيديولوجيا ـ العقيدة إلى الأيديولوجيا ـ الفن باعتبار هذه الثانية مفهوماً للحياة لا يمكنه حين ينشدُ الحقيقيَّ ـ والفن حقيقة ـ إلاّ أن يكون نابضاً بالحرية وطالباً للعدالة.

وبدل أن نسْألَ عن موقع الرواية بين الانتماء القومي والانتساب القطري، فإننا نسأل:

هل استطاعت الروايةُ العربيةُ أن تكون روايةً مميَّزةً بلغتها الروائية؟ أو هل أبدعت روايةُ هذا الكاتب أو ذاك التي تحكي هذه الحكاية أو تلك لغتَها داخل اللغة، أم أنها بقيت مجرَّدَ حكاية؟

خلاصة، ربما لما هو خلاصة، يبدو لي أن تميزَّ الرواية بلغة روائية خاصة هو هويتُها، لا حكايتُها التي تخصُّ هذا القطر أو ذاك؛ وإلاّ لكان علينا أن نقرن الهويةَ بالمكان وبالتالي بهذا المقهى، أو بتلك القرية، أو بذاك المنزل، أو أن نقرنها بهذا الشخص ـ البطل، أو بذاك الفلاح، ولكان على الهوية أن تُضيِّقَ حدودَها لتوائمَ عناصرَ الحكاية المحدِّدة لها.

* * *

على أن اقترانَ سؤالِ الهوية بلغةٍ روائية مميزةٍ لا يحولُ دون تعددِ اللغات الروائية، بمعنى أن تكون لنا داخلَ اللغة العربية لغاتٌ روائية مميزة. إنّها مسألةُ إبداع، بها تلتقطُ الرواية الناظمَ المشترك، بين الحكايات ودلالاتها، فتشي الواقعةُ الراهنةُ بالتاريخي وتشفُّ مرآةُ الفضاء الروائي، فنرى وجوهَنا على اختلافها، ونقرأُ حكاياتِنا في الحكاية.. كأن نقرأ في رواية **ميرامار** (لنجيب محفوظ) حكاياتِ الخلل الداخلي في حكاية زهرة المصرية وسرحان البحيري المصري الذي سرق مصنع النسيج التابع للقطاع العام وانتحر؛ أو كأن نقرأ في رواية **طواحين بيروت** (لتوفيق يوسف عواد) حكاياتِ التمزق بين الريف والمدينة في حكاية تميمة اللبنانية التي تنتهي بها الانكساراتُ الحادّة إلى اختيار المقاومة.

أن ترتبط الحكايةُ في الرواية الأولى بالتجربة الناصرية قطراً، وبالاسكندرية مكاناً، وبشخوص ينتمون إلى مجتمعِ مصر؛ وأن ترتبطَ الحكايةُ في الرواية الثانية بالتحولات الاجتماعية التي عرفها لبنان قبيْل انفجار الحرب فيه، وببيروت والمهدية (الجنوب) مكاناً، وبأشخاص ينتمون إلى مجتمع لبنان ويحملون سماتِه... إنَّ ارتباطاً كهذا أو ذاك لا يضع هاتين الروايتين موضعَ تساؤلٍ عن موقعهما بين القومية والقطرية (تكاملاً أو تناقضاً). ذلك أنّ تميُّزَهُما روائياً، كما روايات عربية أخرى (وإن محددة عدداً، أو لا تشكل ظاهرة بعد) هو الذي يتيح للقارئ في أي قطر كان، أن يرى فيها صورةً لحكايته تتجاوزه «صورة» تحاوره وتذهبُ أبعدَ منه.

لذا يبدو لي أن النظر إلى الرواية العربية في حدود عناصرها الحكائية أو في حدود مرجعيتها؛ وأنّ تحديدَ هويتها استناداً إلى مواطن الشخوص فيها، أو إلى عالمها المكاني الذي تتحرك فيه هذه الشخوص، أو إلى الواقع الاجتماعي الذي تنتسب إليه الحادثة؛ وأنّ طرحَ سؤالِ التكامل أو التناقض عليها... لهي أمورٌ لا تنحرف بسؤال الرواية عن مستواه الذي هو له فحسب، بل تشير إلى إسقاط تحديدات نظمية ـ عقائدية أو قانونية ـ سياسية، تأباها طبيعةُ الأدب، كما يأباها كلُّ فن.